

دور القصة الجزائرية في بناء الوعي الاشتراكي في مجتمع ما بعد الاستقلال
المنطلق والغاية. قراءة في " الشهداء يعودون هذا الأسبوع" لطاهر وطار

The role of the Algerian story in building socialist consciousness in the post-independence society. Reading 'The Martyrs Return This Week' by Tahar Wattar

المؤلف الأول*¹ حكيم دهيمي

مخبر الشعرية الجزائرية. جامعة محمد بوضياف المسيلة hakim.dehimi@univ-msila.dz

ARTICLE معلومات المقال INFO	ABSTRACT (ملخص)
تاريخ الاستلام 2024/10/02 تاريخ القبول 2024/10/24. تاريخ النشر 2024/11/03.	تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن آليات بناء الوعي الأيديولوجي (الاشتراكي) في السرد القصصي عند الطاهر وطار عبر " الشهداء يعودون هذا الأسبوع " نموذجا، وذلك بالوقوف على أثر الشخصيات بوصفها عنصرا سرديا، محركا ومنجزا للحدث ، و على فكرة المضمون الرمزي / الواقعي في صياغة رؤية أيديولوجية تستهدف الوعي، تنطلق من الواقع في صلتها بالماضي بما فيه من حمولة تاريخية وتراهن على سؤال المستقبل، الذي تعمدت القصة تركه مفتوحا ، كما تقارب هذه الورقة البحثية أيضا بالمجمل أهم منطلقات السرد القصصي عنده وترصد سمات لغته في هذا النموذج موضوع البحث.
الكلمات المفتاحية القصة، الأيديولوجيا، الشخصية، الوعي، الواقع، الاشتراكية، المضمون، اللغة، المنطلق، الغاية	
Key words (05) Tahar Wattar . Ideological symbolic/realistic Algerian story	This paper aims to uncover the mechanisms of building ideological (socialist) consciousness in Tahar Wattar's storytelling through 'The Martyrs Return This Week' as an example, by standing on the impact of the characters as a narrative element, as a driver and achiever of the event, and on the idea of the symbolic/realistic content in the formulation of an ideological vision aimed at consciousness. This paper also examines the impact of the characters as a narrative element, the engine and achievement of the event, and the idea of symbolic/realistic content in formulating an ideological vision aimed at awareness, starting from the reality in relation to the past with its historical load and betting on the question of the future, which the story deliberately left open, as well as the most important premises of his storytelling and the features of his language in this research model

المؤلف المرسل : ¹ أ.د. دهيمي حكيم

تمهيد:

تعدّ القصة القصيرة أبرز الأجناس الأدبية التي يمكن من خلالها الغوص في مخيال الأمة ووجدانها، لجملة من الأسباب، لعلّ أهمها: علاقتها الوطيدة بواقع الأمة وما يجري فيه من أحداث، فهي تميل إلى رصد بعض القضايا التي عادة ما تشكّل هاجسا في المجتمع وفي فترات محدّدة، إذ ترصد الواقع رسدا جزئيا يمكن من معرفة أهم الإشكالات القائمة فيه عبر متاح زمني قصير، يساعد على انفتاح الوعي بأقلّ جهد ممكن على قضايا الأمة وانشغالاتها وما تتطلّع إليه.

يضاف إلى ذلك أنّ القصة القصيرة في تناولها لجملة الأهواء وتقلّبات النفس البشرية ولردود أفعالها، ولما يتعرض له المجتمع من اضطرابات وجدانية، يجعل منها جنسا أدبيا ذا صلة مباشرة بوجدان الأمة.

و إذ هي كذلك في علاقتها مع المجتمع الذي تتوجه إليه، فإنها تعدّ أقرب المسالك إلى شحن أفرادها بالوعي والقيم، وكل ما يعتقد الكاتب أنه يخدم مجتمعه وأمتّه، فهو في نهاية المطاف جزء عضوي منها، وانتماؤه إليها يحتم عليه المساهمة في بناء وعيها، إذ هو ضميرها الحي، ووصوتها الأصيل، حامل رؤيتها، ذلك أنّ "أي كاتب مهما كان شعوره بالتفرد بفلسفة خاصة، لا بدّ أن يكون محكوما في رؤيته للواقع بتصور إيديولوجي معيّن تتبنّاه فئته الاجتماعية التي ينتمي إليها أو فئة أخرى يتبنّى تصوراتها، سواء كان ذلك عن وعي أم عن خضوع واستلاب"(1).

ولئن كانت القصة القصيرة تمتاز بالوصف السريع لبعض الحالات، وتطرق أفكارا محدّدة فيما تتناوله، باعتبار ذلك من أهم خصائصها الفنية، فإنّ إسهامها في بناء وعي المتلقي وشحنه بالمبادئ والقيم الفكرية يعد أيضا من أبرز مهامها، لاسيما إن كان من يتولّى كتابتها شخصية لها من الوعي والدربة في التعامل مع الأفكار والأحداث، ما يمكنها أن تتجاوز السطحية في التناول، والمضي إلى صياغة الوعي بحسب متطلبات الراهن وطبيعة الأسئلة المطروحة، ولا ريب أن هذا الأمر يؤثّر بشكل عميق في المتلقي، في تعديل مواقفه والتأثير في سلوكه تجاه ما يقع في مجتمعه وفي العالم الذي من حوله، على اعتبار أن "الأيديولوجيا تمثّل عصب الرسالة المتضمّنة في أي اتصال لغوي في مجال النصوص"(2).

1- الطاهر وطار ومنحى الكتابة الأيديولوجية:

في القصة الجزائرية القصيرة على وجه التحديد يعدّ الطاهر وطار من أبرز مؤسّسي السرد الأيديولوجي، فهو عبر مجموعاته القصصية الأولى وعلى امتداد كتاباته الروائية يسعى إلى التأريخ للجزائر من منظور شخصياته التي عادة ما تتلبّسها حمولة أيديولوجية محدّدة في الخيار الاشتراكي بوصفه خيارا- على الأقل في منظوره - مناسباً لمصالح المجتمع العليا، ومسلكا لتحسين

الأوضاع الاجتماعية في مجتمع ورث الفقر والتخلف عن الاستعمار الفرنسي ، لذلك فهو في قصصه يؤدي دور السارد ، ولكن المونولوج الذي يتبناه أسلوبا فنيا يساعده على تقمص كل شخصية في القصة ، كما لو أنه يسكن بروحه كل الشخصيات ليصوغ من مجموع أحداثها وتصرفاتها وأفعالها، وردود أفعالها موقفه الصريح الذي يجسد في نهاية الأمر خطابا أيديولوجيا ذا غاية سياسية واضحة ، ولا يقتصر هذا المنحى في كتاباته القصصية الأولى وإنما هو بمثابة الميزة الأساسية التي تطبع نصوصه القصصية الأولى واللاحقة ، والتي تمتد عبر خطه الروائي الذي ظلّ وفيّا له طوال حياته الأدبية.

2-المنطلقات:

منطلقه في ذلك هو اعتماده " لتكنيك " يتعين في دقة اختياره للشخصيات في أعماله القصصية والروائية على حد سواء، فهو يختارها بعناية ابتداء ممّا يضفيه عليها من أسماء وصفات، وصولا إلى ما يفرضه عليها من منطق ومنطوق و أفعال (أحداث) في ثنايا القصة ، وكل ذلك لغاية أساسية هي شحنها بالحمولة الإيديولوجية التي يسعى إلى طرحها، وهي المبادئ والقيم الاشتراكية التي ظلّ وفيّا لها، سائرا على نهجها طوال حياته الأدبية، كما تشي به نصوصه وكما أفصحت عنه الدراسات التي تقصّدت هذا الجانب في كتاباته القصصية والروائية، فشخصيات أعماله القصصية - مرة أخرى- هي منطلقه في تحديد خطه السياسي وأدواته في بلورة موقفه من قضايا مجتمعه وأمتّه ، وعلى وجه التحديد من طبيعة الأزمات المتلاحقة التي عرفتها الجزائر ابتداء من مرحلة التحرير، ثم مرحلة ما بعد الاستقلال وما عرفته، بعد ذلك، من تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية.

يعدّ هذا الأسلوب في التعامل مع الشخصيات والحرص في توظيفها توظيفا فنيا دقيقا- حتى لا تخرج عن الخط السياسي للكاتب وقناعاته الإيديولوجية- بمثابة مظهر جلب انتقادا لتقنية السرد عنده، على اعتبار أنّه يضيق على شخصياته، ولا يترك لها مجال الحركة والتطور ، إذ يمارس عليها ضغطا بالكيفية التي يجعل موقفه الإيديولوجي مهيمنا وقناعاته السياسية والفكرية أولوية أساسية في البناء السردى، ولعلّ هذا ما جعل محمد صالح خرفي- مثلا- يستنتج أن كتابات الطاهر وطار الروائية تسعى إلى " تكريس القراءة "المؤدّجة" والتمكين للتبعية -طبعا التبعية للسياسي- لا للإبداع"(3) وهي ميزة تنطبق على كتاباته القصصية كما تنطبق على كتاباته الروائية، و أكبر الظن أن لهذا المنحى في كتابات الطاهر وطار السردية مبرره وغايته ، مردّ ذلك إلى غلبة حسّ الالتزام بقضايا الأمة على حسّ الإبداع في مرحلة من مراحل تطور المجتمع الجزائري ، كان فيها الكاتب، بمنطق طبيعة المرحلة، مطالبا - من منظور فلسفة الواقعية الاشتراكية التي اعتنقها والتزم بها- بتأدية دور وظيفي في الدفاع عن قضايا الطبقة العاملة المسحوقة (البروليتارية Proletariat) والإسهام في عملية التغيير وفي الإعداد لها، ولا شك أنّ وظيفة مرجوة من الكاتب بهذا الشكل تؤدي به إلى الانزلاق إلى الخطاب الذي يقوم على "الشّعارية" والحماسة والتقيرية أكثر

مما يقوم على الإبداعية ، وأيضا إلى تبني الرؤية الأيديولوجية (الاشتراكية) أكثر من الرؤية الإبداعية ، وهو مظهر يزري بأدبية المشهد السردى وسرديته على افتراض أن السرد جنس أدبي ، يصاغ بأسلوب فني، إذ أن القصة كما الرواية هي " عمل أدبي يفترض فيها أن تحتوي نظاما فكريا معينا أو رؤية كلية أو جزئية للحياة تصوغها وفق معايير فنية تجعل منها في النهاية كيانا فنيا يجوز وصفه بالرواية" (4) لأن العمل الفني أيّا كان جنسه إذا ما انطبعت عناصر بنائه (الشخصيات، المضمون المكان ، الزمان ، القيمة ..) بالفكرة والموقف الإيديولوجي عن تقصّد أضمحّل هذا العمل في منظور الفن وانحصرت قيمته ومكانته في ظلّ البيئة التي نشأ فيها وفي نطاق اللحظة الزمنية التي كتب فيها لا يتجاوزهما، ولعلّ هذا ما جعل "بول ريكور Paul Ricoeur" ينفي التصاق الفكرة الإيديولوجية بشخص الكاتب، بوصفه منشئا للعمل الأدبي، ويعزّيها إلى الطبقة و إلى موقف المجتمع ، ف "الأيديولوجيا ليست موقف الشخص المتكلم إنها دائما موقف شخص آخر" (5) وهذا يعني أن الكاتب يعبر عما تتوق إليه الطبقة الاجتماعية من فكر ومن أيديولوجيا تختارها وتتبنّاها منهجا لحياتها بكل أبعادها السياسية والثقافية والاجتماعية، وليست فرضا يفرضه الكاتب من منظور ما يمتلكه من سلطة الكتابة والتعبير، وما يتمثله من مبادئ وطروحاتها، وإلاّ غدا أمره لا يختلف عن حقيقة أي منظومة مستبدّة، لا تقبل لمجتمعها-على ما فيه من مظاهر التعدّد والتنوع - إلا ما تقرّره هي وما تراه صالحا من منظورها هي دون سواها.

فالكاتب ينبغي أن يكون حياديا لا سيّما في بعض المواقف التي تستوجب تعدد الأصوات وتنوّعها في مقارنة الإشكاليات التي يواجهها المجتمع ، خاصة ما تعلّق منها بالإرث الحضاري للمجتمع ، وبحاضره ومستقبله، وهو مطالب بنوع من الحياد يمكن أن ينتج عنه- كما تقول يمني العيد "نوعا من ديمقراطية التعبير داخل الرواية" (6) في سياق حديثها عن تعدد الأصوات في الرواية ، ولا شك أن الأمر ينسحب على الكتابة القصصية ، طالما أن كلاً من القصة والرواية جنسان سرديان يهدفان - في المقام الأول- إلى بناء الإنسان ، و أهمّ ما في عملية البناء هذه هي وعيه ، على افتراض انه أداة التغيير الأولى على مسلك التطور. والغاية التي تتقصدها أجناس التعبير الفني المختلفة وأشكال الكتابة الأدبية المتعددة.

3- جرعة المضمون الإيديولوجي في الكتابة السردية:

على قدر ما يؤديه المضمون الإيديولوجي في الكتابة السردية عموما من وظيفة لبناء الوعي الفردي ؛ بتمكينه من الانفتاح على خيارات فكرية و أيديولوجية جديدة، وعلى قدر ما يحقّقه من رؤية للعالم، فإنّ الشّحن والتعبئة الإيديولوجية تستلزم أن لا يكون منطلقها في العمل السردى النظرة الأحادية ، لأن ذلك من شأنه أن يعزّز من حضور سلطة أيديولوجية ومنظومة قيم أحادية ووحيدة في النص هي أيديولوجيا الكاتب وقناعاته الشخصية، وقد انتبه "باختين" Mikhaïl Bakhtine إلى هذه المشكلة

في دراساته للرواية، ما جعله يعارض الرواية ذات الصوت الواحد ، مقترحا ما اصطلح عليه بالرواية " المونولوجية " التي استوحاها من أعمال " فيودور دوستيوفسكي Fiodor Dostoievski "، حيث يتميز هذا النوع من الرواية كونه ذا " طبيعة حوارية بالضرورة حيث تتصارع الأصوات الإيديولوجية ، ولا تكون هنالك غلبة لأيديولوجيا ضد أخرى ، ويكون موقف الكاتب تام الحياد"(7) مما ينتج غنى في الرؤية وكفاءة على المراجعة والقراءة والتأويل لكل التغيرات التي تحصل في تاريخ المجتمع، بل وتفسير ذلك ورده إلى شروطه الطبيعية والثقافية والاجتماعية في سياق البنية التحتية والأفقية للمجتمع.

4- عنوان القصة:

حركة الشخصيات في الأعمال القصصية للطاهر وطار لا تخرج عن طوعه على مدار الأحداث ، وهي تؤكد في كل سياق سردي وجهته الإيديولوجية ، والتي عادة ما تتعين في عتبات نصوصه ابتداء ، لا سيما في العناوين التي يسجي بها نصوصه ، لتوجيه القراءة، على اعتبار "أن العنوان بنية نصية"(8)؛ بمعنى أنه يقترح مسلكا إلى أعماق النص ، ويكشف في مرحلة متقدمة عن إطار بنيته المفاهيمية ، على افتراض أن القصة في أبسط دلالاتها تتشكل من أحداث تؤسس لمعركة من المفاهيم ، والعنوان كذلك "بنية صغرى لا تعمل باستقلال تام عن البنية الكبيرة ، التي هي النص المنضوي تحت العنوان"(9) فالعلاقة – إذن- بين العنوان والنص كالعلاقة بين مدخل البيت ووما في محتوى البيت ، وإن شئنا قلنا هو قشرة النص الخارجية التي تحدّد علاقة ظاهره بباطنه، وفوق ذلك كلّ هو نقطة التماس بين القارئ والنص ، بل هو النافذة التي يطلّ عليها النص على القارئ بشكل إغرائي يستدرجه إلى أعماقه دون سابق ترتيب وإعداد.

إنّ كلمة النصّ الترحيبية بقرائه (ضيوفه) إنّما هو عنوانه الذي يستقبلهم به بادئ الأمر ، ولاشك أنّ علاقة القارئ بالنصّ، ضمن هذا الإطار، تتحدّد انطلاقا من لحظة انفتاحه على عنوانه لحظة القراءة ، وما يتخلّلها لاحقا من تفاعل مع أجواء النص قصة كان، أو رواية، أو أي جنس آخر، كما لو أنّ عملية كشف القارئ للمتن القصصي تتمثّل في الأساس على ما يشي به العنوان من رؤية أو ملامح رؤية ، لذلك عدّ الوقوف عند العنوان في القراءة المعاصرة محطة مهمّة في إنتاج المعنى وكشف أغوار النصّ الدلالية.

تأسيسا على هذا المنطق، فإنّ المتن القصصي لدى الطاهر وطار يتّخذ من العناوين منطلقه في بناء فكرته الأيديولوجية في كثير من الحالات، وفي قصة "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" تتجلّى هذه الحقيقة بشكل واضح؛ فربط عودة الشهداء بزمن المستقبل القريب (هذا الأسبوع) يحيل بالضرورة على استرجاع مشعل الثورة في رهن متأزم لم يجد فيه أصحابه مسلكا للنجاة غير تجديد العهد بالقيم التي قامت من أجلها ثورة التحرير؛ من حقّ في العيش في كنف الحرية والعدالة والمساواة والعيش

الكريم، وهي القيم التي بذل -لأجلها- الشهداء أرواحهم فداء لها، فعودة الشهداء ممكنة من منظور الكاتب ومن منظور قناعاته التاريخية التي تعتبر " أن النص ليس مجرد تعبير عن الواقع بل هو أداة فعالة لتغييره" (10) وهي ممكنة من منظور قيمي و أيديولوجي، ولكنها عودة مرهونة بالوعي برسالة الشهيد وبقيمة التضحية التي قدمها، ولأن هذه العودة متأنية ومتحقة بزوال قوى الشر من أعداء الوطن، و من خونة وانتهازيين ووصوليين، ممن انقلبوا على ميثاق الشهداء وانسلخوا من العقيدة الثورية، التي لا تزال الاشتراكية - بقيمتها وبمواقفها مع المهوورين والمظلومين- تمثل امتدادا لها في المضمون الضمني للقصة، وتأتي أحداث القصة لتعزز طبيعة الموقف الأخلاقي من الرصيد الثوري للمجتمع، مع العلم أن "الموقف الخلقي لا يلغي الأيدولوجيا، لكنّه يعزّزها في هذه القصة التي تعرض حالة مرضية عبثية وقع فيها السياسي وغير السياسي سواء بسواء" (11).

إنّ بناء الوعي بالرؤية الاشتراكية، من شأنه أن يحقق نوعا من الفضح والكشف لانقلاب المجتمع بكل مؤسساته على قيم الثورة، لا سيما و أنّه تم الالتفاف عليها بمنطق الشرعية الثورية المزيف، الذي لا يعبر إلّا عن الطمع والانتهازية والوصولية، وعن خيبة أمل في تحقّق مكاسب الثورة في عهد ما بعد الاستقلال، حيث تبوّى المجتمع الرؤية الاشتراكية منهجا في الحكم، وخيارا في تسيير شؤون المجتمع كلّ في إطار الحزب والمنظمات الجماهيرية المنبثقة عنه وهي في القصة (قسمة الحزب، قسمة المجاهدين، البلدية. القباضة..).

في هذا السياق تأتي القصة بأحداثها وبمنطق سردي ذكي، لتشكّك وتكذب زعم الانضواء تحت قيم الاشتراكية، طالما أنّ المجتمع بمؤسساته كلّها منقلب على قيم الثورة ورسالة الشهيد، فانحرافه عن قيم الثورة وأهدافها يقود بالضرورة إلى انحراف عن الرؤية الاشتراكية المتبنّاة نهجا للمجتمع، لأنّ غاية العقيدة الثورية والعقيدة الاشتراكية واحد، فهما تهدفان إلى تحقيق الحرية والعدالة والوقوف إلى جانب الطبقة الهشّة، " فحجر الأساس في قصص الطاهر وطار وجلّ كتاباته هو الانطلاق من فهم المجتمع من منظور الصراع الطبقي، وعليه يترتّب اتخاذ موقف من هذا الصراع، إذ لا يمكن للفنان والأديب أن يكتفي بالمشاهدة والوصف، بل لابد أن يتخذ موقفا من الواقع ومن الحياة، أي الصراع الدائر في المجتمع، فالكاتب لا يخفي انحيازه للفقراء والمضطهدين، أي للطبقة الكادحة، ومن الجديد الذي يمكن أن ينسب إلى الطاهر وطار في الكتابة القصصية هو تبنيه للفكر الماركسي ومحاولة ترجمته إلى أعمال أدبية" (12)، فكل انحراف عن مبادئ الثورة وعن أمانة الشهداء هو انحراف عن خيار المجتمع، ولعلّ هذا ما تغيّته وتقصّده القصة بأحداثها وشخصياتها و ومساقات السارد فيها كما سنوضحه:

5- بنية قصة الشهداء يعودون هذا الأسبوع من حيث المضمون.

تقوم القصة على رسالة يتلقاها "الشيخ العابد" والد الشهيد مصطفى، مؤداها أن ابنه الشهيد سيعود في غضون أسبوع ، فيقع في حيرة من هذا الأمر أخذا طريقا منحدر في القرية، يستفهم فيها شخصيات متعددة، هي دعامة القصة، عن موقفها من هذه العودة لابنه الشهيد، وتمضي القصة في هذا المسلك كاشفة عن رفض هذه الشخصيات لهذه العودة واستنكارها لها في مثل هذا الظرف، وعدم تقبلها منطقاً و عاطفة ، بوصف سردي ينم عن رؤية أديولوجية معقدة في صياغتها تستهدف بناء الوعي بقيم الرفض والتغيير لكل ما هو مزيّف بموجب الروح الاشتراكية التي تستدعي عودة الشهيد بوصفه رمزا للتضحية والفاء والوفاء للأمة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وبعبارة أخرى كرمز لقوة الحق المجابهة لقوة الزيف والباطل.

الشخصيات والبعد الإيديولوجي:

1- شخصية الشيخ العابد: يحيل اسمه إلى توصيف ذي حمولة إيديولوجية، فالعابد تتحقّق فيه كل صفات الالتزام ، الإيمان ، الوفاء ، العقيدة الصحيحة، ولعلّ شخصيته في النصّ تمثل الضمير الحي في المجتمع الذي ينبض بقيم النضال والوفاء، ولكنه يعيش في واقع مزيّف.

2/ شخصية صاحب الخمارة: قدور، اسمه مشتق من "القدرة" بمعنى "الاستطاعة"، لا يعكس حقيقته ولا ينطبق عليه في الواقع، فهو رفيق الشهيد مصطفى ابن الشيخ العابد في زمن الحرب، ويظهر أنّه تخلّى عنه في لحظة حرجة عندما وطئت قدماه لغما، بخلاف ما يتظاهر به من بطولة، وأنّه دفن رفيقه مصطفى الشهيد بيديه، وهي شخصية مكشوفة في القصة يفضحها حاضرها، من خلال حدث سطوها على خمارة بعد الاستقلال، ويكشفها ماضيها المشبوه عبر موقفها الراض لعودة رفيقها في النضال (زعما) مصطفى الشهيد.

3/ شخصية شيخ بلدية القرية ومدير المدرسة عبد الحميد: وهو أيضا شخصية مزيفة في القصة، فاسمه عبد الحميد، وربما القاص عمد إلى تسميتها بعبد الحميد تهكّما وسخرية، إشارة إلى عبد الحميد بن باديس، رمز التنوير والإصلاح ، على ما بين هذه الشخصية وشخصية عبد الحميد من مسافة وتباين، على الرّغم من موقعها المشرف ظاهريا في توليها إدارة المدرسة من ناحية، وتولّيها لشؤون بلدية القرية من ناحية أخرى، هي كذلك ما ضيها المشبوه وماضي أبيها الخائن الذي قتل على أيدي مصطفى يفضحانها ويفسران تركيبها النفسية ويكشفان أصلها وفصلها، ويفسران موقفها من عودة الشهداء، وهو موقف إنكار مطلق لحقيقة الشهيد ، ومحو جذري لتاريخه، ويظهر هذا الموقف في حوار هذه لشخصية مع الشيخ العابد: " إنهم مسجلون في سجل الوفيات وعلمهم أن يثبتوا حياتهم من جديد " (13) وفي ذلك إشارة إلى ما تعرضت له منجزات الثورة من إفراغ لمحتواها القيبي ، ومن محاولات الطمس والمسح والإنكار للملحها شكلا ومضمونا، وتتضح الهوية الحقيقية لهذه الشخصية عبر تقنية

الحوار الداخلي على لسان الشيخ العبد: " ابن خائن سكان القرية يعرفون ذلك ، كلهم انتخبوه، انتخبوه بالإجماع، أنا بدوري صوّت لفائدت.."(14) وبقدر ما يحيله هذا المقطع على الحقيقة الباطنية لهذه الشخصية (مضمرة الشخصية) فهو أيضا يكشف عن الإحساس بمرارة التفريط والتقصير والعبث برسالة الشهداء، إذ يعمّق هذا المشهد اعتراف الشيخ العابد بغفلة المجتمع وبانتهاك حرمة الشهداء عبر الصمت الجماعي أمام أشكال إهانة الماضي الثوري والمسح الذي طال الاستقلال بالسماح للقوى المعادية له بتولي السلطة، فبالنص يتساءل العابد مع نفسه : " إنني أتساءل هل كنّا نرفض الانتخاب على أبيه الخائن لو بقي على قيد الحياة ، فقد فعلنا أكثر من ذلك"(15).

تمثل هذه الشخصية في القصة (مدير للمدرسة)، علامة دالة عمّا آل إليه الواقع الجزائري بعد الاستقلال من تقصير في التعامل مع ثوابت الأمة، إذ يظهر أن المدرسة قد طالها التشويه بإسنادها لغير أهلها (التيار المعادي للثورة) على الرغم من كونها مكونا حيا في المجتمع، على اعتبار وظيفتها النبيلة في إعداد الأجيال لتسلّم المشعل، ومادامت هي في أيد غير أمينة، لا تتحلّى بالمسؤولية الأخلاقية اللازمة، فلا شك أنّ الضرر بليغ، و خسارة المجتمع التي تستشرفها القصة في بعدها التربوي والتعليمي عميقة وجسيمة ، وهذا رصد فكري يحسب للقاص، وهو يمثل تصديرا تسعى القصة نقله إلى وعي المتلقي.

4/ شخصية مسؤول الفرع النقابي: شخصية تحمل اسم المتّصف بالأيديولوجية الشيوعية "كومينيست Communiste"، ولكنه في القصة يظهر شيوعيا مزيفا ، و شيوعيته مزيفة لأنها مفرغة من محتواها ، وتصرفه في القصة يشير إلى هذا المعنى، هو الآخر لا ينأى عن السطحية فهو لا يهتم من عودة الشهداء إلا معرفة طبيعة الفكر الذي يحملونه : كما لو أنه لا يعنيه من الأشياء إلا مسمياتها، وهو توصيف ذكي من الكاتب لهذه الشخصية حتى يمرّر نقده لكل اعتناق مزيف للرؤية الاشتراكية، لا يراهن على بعدها الإيديولوجي الفكري الأصيل، الذي يمثل محتواها الجوهرى ، ولا شك أن شخصية "الكومينيست" تمثل علامة دالة أيضا على مسار أحداث القصة جنبا إلى العلامات الأخرى التي تمثلها الشخصيات في صياغة الطرح الاشتراكي وترسيخه في الوعي، في ظلّ ما يواجهه المجتمع الجزائري من تحديات في مرحلة تاريخية مهمة من تاريخ الجزائر وهي مرحلة الاستقلال وما بعده.

إنّ مجموع الإشارات المنبثقة عن شخوص القصة تؤول إلى رصد إشارة كلية لنص القصة مؤداها: لا أحد يرحب بعودة الشهداء، وهو ما يكشف عن مظهر القطيعة بين الماضي الثوري الذي ينبض بقيم التحرير من ناحية وبين الحاضر بوصفه انفلاتا وانحرافا عن رسالة الشهداء ، ولا شكّ إن هذا الموقف يمثل في حد ذاته محاولة لبناء الوعي من منظور إيديولوجي، أداته الكشف والمقابلة بين اتجاهين متناقضين في الرؤية ، رؤية الشهيد، التي تمت التضحية من أجلها بالغالي والنفيس من

جهة، ورؤية أعداء الشهداء من خونة الأمم والوصوليين والانتهازيين، التي يتم التأسيس لها من جهة أخرى، هذه الرؤية التي تتجسد في تصرفات ومواقف الذين يتحركون باسم الشرعية الثورية في المجتمع وهي منهم براء.

لعل المسألة الكبرى التي تطرحها القصة، إنما هي خيانة المجتمع بمعظم قواه التي تمثلها لمبادئ الثورة ومكتسباتها، ولتضحيات الشهداء، وفي السياق ذاته وبالمقابل، فالقصة تبرهن على إمكانية رجوع الشهداء عبر ميثاق الرؤية الاشتراكية بكل مبادئها المنصفة للضعفاء، والتي تتغيا استرداد الحقوق إلى أصحابها الحقيقيين. ولا يبدو مثل هذا التأويل لأحداث القصة غريبا، إذا ما وضعنا في الحسبان أن الميراث الثوري والتاريخي الذي يتمتع به القاص ينسجم مع الانتماء إلى الواقعية الاشتراكية مبداء ومنهجاً في التعامل مع قضايا الوطنية والقومية. على اعتبار أن قيم الثورة ومنطلقاتها وغاياتها تكاد تكون نفسها تلك التي قامت لأجلها الإيديولوجية الماركسية.

5/ شخصية المانع (منسق القسم): يظهر مشغولا بأمور تنظيمية تتعلق بالقسم، غير مكترث بحديث الشيخ العابد، ولا بعودة الشهداء، ولكن في الوقت نفسه ينفذ أمره هو الآخر بخبر عودة الشهداء، فتنبثق قصة ثانوية دون مقدمات عبر حديثه إلى نفسه، تكشف المسكوت عنه في باطن هذه الشخصية من ناحية وعن المسكوت عنه في زمن الاستقلال، وهو حديث يقودنا إلى تعرية ماضيه المشبوه، فهو من وشى بمصطفى الشهيد إلى العدو، حين نصب له كميناً في بيته لمدة تفوق شهراً من الانتظار، ما جعل مصطفى يهدده بالاعتقال جراء خيانتته للثورة ولوطنه.

موقفه من عودة الشهداء لا يختلف عن موقف الشخصيات السابقة، إلا أنه أكثرهم إنكاراً وسخرياً من مكانة الشهيد، إذ أنه اشترط عودتهم بمطالبتهم "بالانخراط في الحزب والالتزام للسلطة الثورية"، وإن كانت تتوفر فيهم الشروط تقبل عضويتهم على الأقل، وإذا أثبتوا الولاء تتم ترقية لهم إلى خلايا المناضلين" (16) فصياغة موقف هذه الشخصية بهذا الكيف يكشف عن قدرة الكاتب في إسقاط القناع عن رموز تيار ولى ظهره لمنجزات الثورة وتضحيات رجالها وقت توليه زمام أمور الجزائر في مرحلة الاستقلال وما بعد الاستقلال، وهو ملمح يندرج ضمن النقد الواقعي للواقع، تغذيه روح الالتزام الذي يصدر عنه الكاتب بقضايا مجتمعه.

6/ شخصية منسق قسم المجاهدين: شخصية نزيهة، يفسرها ماضيه المشرف، ولكن في الوقت نفسه تقودنا إلى ما أصاب فئة المجاهدين الحقيقيين من صمت وسلبية وعدمية إزاء ما يحدث من انتهاك لحرمة الشهيد وطمس لقدسية الثورة في عهد الاستقلال وما بعده، وهو مشهد أيضا يضاف إلى سلسلة المشاهد المنبثقة عن حركة الشخصيات في القصة، ولا يخفى أثر

هذه المشهدية في تثوير لغة النص في القصة ، ومن إضفاء لطابع الحيوية في بناء عالمها ، وهي من أهم خصائص السرد القصصي في هذا النموذج ، ومنطلقا فنيا من جملة المنطلقات التي اعتمدها الكاتب لصياغة رؤيته الإيديولوجية بشكل كلي.

7/ شخصية قائد الدرك: شخصية ذات ماض مشبوه ، ولا يظهر عليها تقصير بشكل مباشر في الواقع، ولكنها وظفت في القصة توظيفاً تقنيا ، فهي بمثابة واسطة أزاحت النقاب عن الحالة المزرية التي آلت إليها أرملة الشهيد، وهو مشهد يعمق فكرة ضياع أمانة الشهداء وتراجع رمزياتهم الحقيقية في زمن الاستقلال وما بعده، وقد تمّ توظيف المكان الواقعي (الخمارة) بمهارة في الكشف عن سقوط قدسية الشهيد عبر سقوط أحد رموزه وهو (أرامل الشهداء) عبر مشهدية تجسد تدهور وضعيتهم الاجتماعية في زمن الاستقلال.

هذه الشخصية هي الأخرى تنبثق عنها قصة ثانوية عبر حديثها إلى نفسها وارتدادها إلى الخلف، في شكل حوار داخلي (مونولوج) تتحدّد به ملامحها في الماضي وتؤسس لمشهد يندرج ويتكاثف مع المشاهد السابقة في الغاية والهدف؛ أي تقريب الحقيقة وتوصيفها.

تحدث الشخصية نفسها قائلة: "إذا عاد من يعرفني ستكون المشكلة لا أحد يعلم عن أسري يوم المعركة التي استشهد فيها كل أعضاء فرقتنا، ما إن انطلقت الرصاصات الأولى حتى رفعت يدي وركضت نحو العدو، غير مبال بهتافات العودة خلفي، كنت حامي الفرقة بالمدفع الرشاش وكان توقفي عن إطلاق النار يعني هلاكها، لم يستطع أحدهم أن يلتحق بالمدفع بالرشاش المحصّن فسقطوا جميعاً" (17) وهو حديث داخلي موطئ للموقف السلبي لهذه الشخصية من عودة الشهداء، وإن لم يكشف بصيغة صريحة عن رفض لهذه العودة ، فإن تورطها في خيانة الثورة في زمن الثورة يبرّر موقفها السلبي كما ورد في منطوقها في النص: "نسلح نساءهم ونوكل الأمر إليهم" (18).

8/ شخصية مسؤول القباضة: ماضيه مشرف بشهادة الشيخ العابد، وموقفه من عودة الشهيد تطبعه السطحية ، فهو يختزل عودتهم في منحة كانت تعطى لذويهم ، ويجب وقفها في حالة عودتهم رأساً..

9/ شخصية الابن: لم يتحدّد موقفه ودوره عابر.

10/ شخصية الإمام: لا تشير أحداث القصة إلى ماضيه وهو شخصية حيادية، عدا أنه، متمسك في إطار موقعه بظاهر النص ولا يحيد عنه، وهو يحيل على الذهنية الدينية، التي تفتقد للوعي بالظروف والملابسات، ولا شك أنّ العمل بمنطقها يقود إلى خسارة كل شيء؛ فموقفه من استفتاء الشيخ العابد له في مسألة زواج ابنه الأصغر من زوجة أخيه الشهيد يشي بحالة من الجهل

بفقه الواقع، وموقفه من عودة الشهيد يكشف عن سطحية هذه الشخصية، وعن غياب ملكة الفهم والتأويل للوقائع لدى هذا التيار الديني السلفي، الذي يمثل في المراحل الأولى من الاستقلال قوة معارضة للتيار ذي النزعة الاشتراكية، ولعل الكاتب تعمّد هذا الوصف ليمرّر نقده لهذا التيار من منظور خلفيته الثقافية الاشتراكية.

يتّضح مما سبق أنّ الطاهر وطار" كاتب فكرة بالدرجة الأولى، وهو إن كتب قصة، فإنّما ليعبّر عن موقف فكري يشغله، ولعلّ هذا ما يسمح أحيانا باعتبار شخصياته واسطة" (19). وإن كتاباته تندرج ضمن اتجاه واقعي تتوحد في صوت واحد، تعبر عن التزامه بقضايا أمته "يستند، كما هو معروف، إلى خلفيه إيديولوجية، هي وليدة تحولات شهدتها أوروبا في مطلع هذا القرن، فكان التزام الأديب الجزائري، كما يرى وطار، نابعا من اقتناعه في إطار الأيديولوجية الاشتراكية، وأن يكون كالتزام العامل المناضل الذي لا ييأس من صلاح الأوضاع ويتحمل من أجل المحافظة على الخط الاشتراكي كل ما يصيبه من أتعاب" (20).

ظلّ هذا الالتزام بقضايا الواقع في إطار الرؤية الاشتراكية مستمرا على امتداد كتاباته القصصية والروائية، على الرغم من التحولات العميقة التي طرأت على المجتمع الجزائري ثقافيا وسياسيا واجتماعيا، وهو التزام ناتج عن قناعة وعن تشبّع بمبادئ وقيم إيديولوجية آمن بها الكاتب بوصفه إنسانا، ظلّت ممتدة إلى نصوصه مهيمنة عليها. على الرغم من وجوب "التفريق بين إيديولوجيا الكاتب بوصفه إنسانا، وإيديولوجيا كتاباته التي لا تخضع إلا لمنطق الكتابة ونسيج الدلالات" (21).

6-البعد الإيديولوجي في مضمون القصة:

قامت القصة على حدث مثير (عودة مصطفى الشهيد بن الشيخ العابد) وهو حدث محرك لكل مواقف الشخصيات و أفعالها وردود أفعالها، وهو ذو طبيعة رمزية، على اعتبار أن العودة غير ممكنة واقعيًا، ولكنها ممكنة فكرة و إيديولوجيا، ومن هنا كان منفذ الكاتب، لي طرح نقدا إيديولوجيا بطريقة ضمنية لجهاز السلطة الإيديولوجي في عهد الاستقلال القائم على منظومة الأفكار الثورية، والتي تمّ الانقلاب عليها بأشكال مختلفة تبعا لدرجات الوعي الطبقي في المجتمع، ولكنّ الثابت في أحداث القصة أن المجتمع بكل أطيافه انفصل عن قطار الثورة، و المواقف التي بلورها السرد في القصة تؤكد أن مسألة خيانة الثورة ورسالة الشهداء وإفراغ الاستقلال من محتواه القيمي وأهدافه الحقيقية ثابتة في ذمة السلطة ومن يمثلها في جيل الاستقلال، وثابتة في ذمة المجتمع ولعلّ هذا هو جوهر الرؤية الإيديولوجية التي سعت القصة تحديد ملامحها، فهي من منظور الرؤية للعالم على حدّ اصطلاح "قولدمان" LucienGoldmann تستبعد إمكانية استثمار الرؤية الاشتراكية وتطبيقها في المجتمع لإصلاح أحواله، لافتقاد الأيمان الصادق بمبادئها والاعتقاد الراسخ بعمق رؤيتها، أي بكلمة واحدة لافتقاد من يحمل لواءها ويضحي لأجلها، إذ لا يمكن للفكرة الاشتراكية أن تؤتي ثمارها في بيئة مجتمع لم يحفظ أفراداه العهد الذي قطعوه لشهداءهم، ولم

يصونوا أمانتهم التي تركوها خلفهم؛ متمثلة في وطن مستقل، قدم الشهداء لأجله أرواحهم، فواقع الحال في القصة هو مفارقة تكشف عن عمق الهوة بين جيل الأمس الثوري وجيل الاستقلال بكل ما يحيل عليه من تناقضات.

7-مستوى اللغة :

لغة هذه القصة ذات ظلال و أبعاد نفسية ، فمنطوق كل شخصية في القصة يكشف عن تركيبها النفسية وعن قناعاتها وعن تحول هذه القناعات بين الماضي والحاضر، وقد لعب المونولوج الموظف في القصة في تعرية كل شخصية ذات ماض مشبوه في القصة بشكل سلس، لا يشعر بالتكلف، بقدر ما ينم عن طلاقة واختيار لكل لفظة تنطق بها الشخصية، لغة لم تمتزج بملفوظ العامية على غرار النصوص التي تبالغ في استخدامها بمبرر الطرح الواقعي.

لعلّ أبرز شيء يمكن ملاحظته عن لغة القصة، بالإجمال، أنّها تشكّل أداة قوية في خلق نوع من الإسهاب المعمق في ثنايا النص ، متأثّ عبر الحوار الذي جمع بين شخصية الشيخ العابد وكل الشخصيات الأخرى التي التقى بها عبر المنحدر، فكانت - فعلا- بمثابة المسلك المريح المؤدي إلى أسفل المنحدر، مكّنت الكاتب من كشف أغوار الذات وتناقضات المواقف التي عالجتها القصة.

خاتمة:

يتعيّن ممّا سبق أن قصّة "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" تمثّل نموذجا قصصيا مندرجا ضمن الأدب الواقعي ، منطلقا وغاية ؛ فمن حيث المنطلق فالقصة تنطلق من رصد التآزم السياسي والاجتماعي، الذي عرفه المجتمع الجزائري في عهد الاستقلال، وعلى وجه التحديد فيما يتعلّق بموقفه من التاريخ الثوري ورؤيته للاستقلال، أمّا من حيث الغاية فالقصة مرتبطة-ضمنيا- برؤية اشتراكية تدافع عنها وتحذّر من مخاطر تفكّكها وانحلالها، في ضوء مآلات الحاضر، ومرتبطة ظاهريا بمجتمع ترصد إشكالاته من منظور مسؤولية أخلاقية، مصدرها التزام الكاتب بقضايا مجتمعه.

- راهن الكاتب على عنصر "الشخصية" في تمرير الرؤية الإيديولوجية وبناء وعي المتلقي بأفكار وقيم، هي ثمرة رصده للماضي التاريخي للمجتمع الجزائري في بعده الثوري واستقرائه لحاضره، بما شهده من تحولات وتناقضات واستشراف للمستقبل، وما يفتح عليه من محتملات، تعمّدت القصة تركها مفتوحة كل ذلك بمنطق سردي سلس ، بعيد عن التكلف، سمته الأساسية : فسح المجال أمام الشخصية لكشف المسكوت عنه.

باعتبار أنّ الإيديولوجية هي النسق الفكري الذي تبناه طبقة اجتماعية ما في المجتمع للوصول إلى غاياتها، فإن القصة بأحداثها تبرز أيديولوجيات متعدّدة، حيث أنّ القصة أسقطت القناع عن موقف و تصور طبقة من المجتمع لمسألة الاستقلال وكيفية

تلقيها لمكتسبات الثورة، وهي أيديولوجيا فاسدة تقوم على الوصولية والانتهازية والأنانية، والزيف، ومن ناحية أخرى القصة وجهت النظر إلى فئة الأوفياء للماضي الثوري وللرصيد التاريخي للمجتمع الجزائري، وهي فئة تمثل التيار المدافع عن قيم الحرية والعدالة والمساواة، وهي تضيف قيمة إيجابية، وتشكل أيديولوجيا وطنية، ومن ناحية ثالثة القصة تميّط اللثام عن الطبقة المحركة للوعي ويمثلها في القصة السارد ذاته بما يمتلكه من رصيد فكري واقعي اشتراكي، و من امتلاكه لأدوات المعرفة والقدرة على الكشف وتسمية الأشياء بمسمياتها، وهي تؤسس لقيمة فكرية أخلاقية بالدرجة الأولى، ولا شك أنّ هذه العناصر الثلاثة مشتملة هي ما يشكل مادة النص ودائرة الصراع في النص بالمنظور الفني، و الصراع في الواقع بالمنظور الإيديولوجي.

هوامش البحث:

- (1): حميد لحميداني الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1985، ص: 125
- (2): نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط4، 2004، ص: 99
- (3): نفسه، ص: 92.
- (4): رشيد العناني، استنطاق النص، مقالات في السرد العربي، الدار المصرية اللبنانية، مصر ط1، 2006، ص: 205
- (5): بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، تحقيق جورج تيلور، تر: فلاح رحيم، ط1، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ص: 13
- (6): يميني العيد، الراوي والموقع والشكل، بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، لبنان ط1، 1986، ص: 176
- (7): حميد لحميداني، النقد الروائي والأيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص: 81
- (8): ناصر علي، بنية القصيدة في شعر محمود درويش، المؤسسة العربية للنشر والدراسات، لبنان، ط1، 2001، ص: 89
- (9): بشرى البستاني، قراءات في النص الشعري، دار الكتاب العربي، ط1، 2002، ص: 32
- (10): واسيني الأعرج: الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية، الرواية أنموذجا، دراسة نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص: 9
- (11) محمد الصديق باغورة، السؤال والموقف التاريخي في الشهداء يعودون هذا الأسبوع للطاهر وطار، حوليات الآداب واللغات، جامعة مسيلة، المجلد 09، عدد 02 جوان 2021، ص: 22-36
- (12): مخلوف عامر التجديد في القصة القصيرة في الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ص: 57.
- (13) الطاهر وطار، الشهداء يعودون هذا الأسبوع، مجموعة قصص، منشورات وزارة الثقافة الجزائرية، الطبعة الثانية، 1980، الجزائر، ص: 57. نسخة الكترونية (<https://fr.scribd.com/document/740291660>)

دور القصة الجزائرية في بناء الوعي الاشتراكي في مجتمع ما بعد الاستقلال المنطلق والغاية. قراءة في " الشهداء يعودون هذا الأسبوع" للطاهر وطار

The role of the Algerian story in building socialist consciousness in the post-independence society. Reading 'The Martyrs Return This Week' by Tahar Wattar

(14): نفسه، ص: 158

(15): نفسه، ص: 159

(16): نفسه، ص: 162

(17): نفسه، ص: 170

(18): نفسه، ص: 171

(19): محمد مصاييف القصة القصيرة العربية الجزائرية في عهد الاستقلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص: 16

(20): محمد بوزيدي، سرد معالم الكتابة القصصية الجزائرية، مجلة تاريخ العلوم، العدد السابع، مارس 2017، ص: 344

(21): الطيب بودريالة، السعيد جاب الله، الواقعية في الأدب، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، عدد: 07، 2006، ص: 55